

سلسلة الكتاب الإلكتروني:

عدد 27

علم النفس عبر الثقافات

الدكتور عبد الناصر السباعي

عدد 27 - 2013



إصدارات شبكة العلوم النفسية العربية

سلسلة الكتاب الإلكتروني: عدد 27

علم النفس عبر الثقافات

الدكتور عبد الناصر السباعي

المحتوى

6	مقدمة
16	الباب الأول: الوضع الحالي للبحث عبر الثقافي في علم النفس
17	الفصل الأول: نظرة تاريخية على البحث عبر الثقافي وعوامل تطوره
17	أولاً: نبذة تاريخية
18	أ- المرحلة الأولى
20	ب- المرحلة الثانية
22	ج- المرحلة الثالثة
26	ثانياً: عوامل تطور البحث عبر الثقافي
26	أ- تأثير نمو علم النفس في تطور البحث عبر الثقافي
17	ب- تأثير العلاقات الدولية في البحث عبر الثقافي
34	الفصل الثاني: إشكالات التعريف في مفهومي «الثقافة» و«عبر الثقافي»
34	مدخل
36	أولاً: إشكالات تعريف الثقافة
40	ثانياً: ماذا نعني بـ «عبر الثقافي»؟
45	خاتمة .
48	الفصل الثالث: تطور مناظير البحث عبر الثقافي
48	مدخل
49	أولاً: المنظور المتمركز حول العرق .
56	ثانياً: المنظور الإسقاطي المتمركز حول الثقافة .
60	أ. المعالجة من الخارج
60	1- البحث عن القوانين العامة
61	1- البحث عن القوانين العامة من موقف وثوقي
61	- التطبيق الآلي للنظريات الغربية
62	- إعادة الحرفية للأبحاث الغربية .
64	2- البحث عن القوانين العامة من موقف متحفظ
65	نموذج الدراسات عبر الثقافية البياجية
69	2- دراسة الفروق بين الثقافات من الخارج .

75	ب- المعالجة من الداخل .
76	1- الخطوة الأولى: الدراسة من الداخل
79	2- الخطوة الثانية: الدراسة المقارنة
79	ثالثا: منظور الاعتراف المتبادل بين الثقافات
86	مناقشة عامة
98	الباب الثاني: معالم رؤية جديدة للثقافة وعلم النفس عبر الثقافي
99	الفصل الرابع: مقترحات جديدة لتعريف الثقافة
99	مدخل .
101	أولا: تصورنا عن الثقافة
101	آ- مقدمات عامة .
102	ب- مكونات الثقافة .
103	1- المكونات التصويرية .
105	2- المكونات الملاحظة .
111	ثانيا: تحليل ثقافي لعلم النفس .
114	آ- التصور الضمني للإنسان في علم النفس
114	1- التصور الثنائي الأول .
115	2- التصور الثنائي الثاني .
116	3- التصور المادي للإنسان
117	١- الفلسفة الوضعية عند كونت .
119	٢- نظرية التطور عند داروين
123	4- التصور الإنسي
124	ب- انعكاسات تصور الإنسان على البحث النفسي
125	1- تأثير تصور الإنسان في مناهج البحث
126	تأثير الاختبارات النفسية بتصور الإنسان
129	2- تأثير تصور الإنسان في مواضيع الدراسات النفسية
130	موضوع الدوافع في علاقته بتصور الإنسان
132	خلاصة
137	الفصل الخامس: مشروع صياغة جديدة لعلم النفس عبر الثقافي
137	أولا: صيغة تعريفنا
138	آ- ماذا نقصد بالمناطق الثقافية؟
138	ب- من يقوم بالبحث عبر الثقافي؟
144	ثانيا: أهداف علم النفس عبر الثقافي
144	آ- إغناء المعرفة النفسية .

151	ب- حل بعض مشاكل علم النفس .
152	1- مشكلة علمية علم النفس
153	تصور العلم في الثقافة الغربية
154	١- الدين والعلم .
155	٢- العلم والفلسفة .
158	2- مشكلة الظواهر النفسية-الثقافية .
160	ج- تسهيل نقل المعرفة النفسية إلى البلدان غير الغربية
163	1- مقترحات بشأن نقل علم النفس إلى العالم الثالث .
168	2- «علم النفس المحلي» .
171	3- وجهة نظرنا حول الموضوع .
172	خلاصة
178	المراجع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ السِّنِّكُمْ وَالْوَالِدَاتُ إِذَا فِي ذَلِكَ
لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ (22)

سورة الروم - الآية 22

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِنْ أَمِنُ مَرْحَمَ
رَبِّكَ وَلَكَدْكَ خَلَقَهُمْ

سورة هود - الآيات 118-119

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ
لِتَعَارَفُوا إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنْ اللَّهَ عَلَيْهِ خَيْرٌ (13)

سورة الحجرات - الآية 13

صدق الله العلي العظيم

مقدمة

إن العلوم الإنسانية المعاصرة - كما نناقشها وندرسها داخل جامعاتنا ومعاهدنا، وكما نطبق نتائجها في مختلف نواحي حياتنا - جزء من المعرفة التي أنتجتها الثقافة الغربية، ولا تزال حتى الآن تنمو وتتطور أساسا في المنطقة الغربية بحيث لا نكاد نلمس أثرا للثقافات الإنسانية الأخرى في أي من مدارسها وتياراتها على وفرتها وتنوعها. ونظرة سريعة على نظريات علم الاجتماع ومدارس علم النفس وفلسفات التاريخ واتجاهات الإناسة والعراقلة¹ كافية لتبين هيمنة الباحثين الغربيين على هذه الميادين وغيرها بشكل مطلق منذ عدة قرون. غير أن الباحثين الغربيين حرصوا على ترسيخ أطروحة استقلال هذه العلوم عن أية ثقافة أو فلسفة، وقدموا نتائجها دائما على أنها قوانين "علمية" صالحة للتعميم والتطبيق على جميع أفراد الجنس البشري دون مراعاة الاختلافات الموجودة بين المجتمعات الإنسانية من حيث ثقافتها ومنظوماتها الفكرية والعقدية. وقد ساعدت هذه الصورة على تقبل العلوم الإنسانية داخل المجتمعات غير الغربية على أنها علوم طبيعية مثل الرياضيات والفلك والفيزياء، وأصبحت كل محاولة لتعرية الروابط والعلاقات الموجودة بين العلوم الإنسانية وبين الثقافة الغربية تواجه بالسخرية والاستخفاف.

وقد زاد من صعوبة تبين العلاقة الموجودة بين العلوم الإنسانية والثقافة الغربية غموض مصطلح "الثقافة" نفسه. فعلى الرغم من شيوعه وانتشاره على أوسع نطاق، لا نكاد نجد اثنين من الباحثين يتفقان على تعريف مشترك للثقافة، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا إن لكل باحث تصورا خاصا للثقافة يقترب بدرجة ما من التصورات التي يقترحها باحثون آخرون ولكنه لا يتطابق مع أي منها تطابقا تاما. يضاف إلى هذا كون التعريفات التي يتناولها الباحثون عموما مقتبسة من علماء الإناسة الذين درجوا على استخدام الثقافة للإشارة إلى العادات والتقاليد المميزة لحياة الشعوب غير الغربية، وكأن الغرب ليست لديه ثقافة بل لديه "العلم" فقط، مما يجعل التفكير في العلاقة الموجودة بين الثقافة الغربية والعلوم الإنسانية أمرا مستبعدا وغير وارد بالنسبة لأغلبية الباحثين.

ولهذا لم تدرس مشكلة علاقة العلوم الإنسانية بالثقافة الغربية بعد، وإن كنا نعتبر دراسة هذه العلاقة شرطا ضروريا للبحث في مشكلة تأصيل تلك العلوم داخل ثقافات إنسانية غير غربية. ذلك بأننا إذا لم نتوصل إلى تحديد العناصر الثقافية الحاضرة في العلوم الإنسانية المعاصرة بدقة، استحال علينا إعادة بناء هذه العلوم على مرتكزات ثقافية مختلفة لجهلنا بالعناصر التي ينبغي استبدالها في هيكل العلوم الإنسانية الحالية. هذه، إذن، هي المشكلة الأساسية التي يتصدى لها البحث الحالي: تعرية العلاقات التي ربطت أحد العلوم الإنسانية البارزة - وهو علم النفس - بالثقافة الغربية.

وإذا كانت علاقة العلوم الإنسانية بالثقافة ذات حساسية خاصة كما أشرنا، فإن علاقة هذه العلوم بالثقافة الإسلامية أكثر حساسية وإثارة لردود الأفعال العنيفة، ليس من جانب الغربيين فقط وإنما من جانب أبناء الأمة الإسلامية أيضا بسبب الظرف التاريخي الخاص الذي أثّرت فيه، والذي جعل معالجة هذه العلاقة والكتابة فيها تتأثر بالمواقف المسبقة من الإسلام عموما.

فمن ناحية أولى نجد أن البرامج التي يتلقاها أبناؤنا في مؤسساتنا التعليمية قد رسخت لديهم فكرة انفصال العلم عن الدين، وبالأخص الدين الإسلامي، بل أكثر من ذلك ربطت التخلف الملاحظ لدى الأمة الإسلامية بسيطرة النظرة الدينية على المعرفة، وجعلت التنمية والتقدم في كل المجالات مشروطا بالتخلي عن تلك النظرة وتبني العلمانية بديلا عنها. ولهذا عندما طرح الشهيد إسماعيل راجي الفاروقي رحمه الله مشروع أسلمة المعرفة² -الذي يهدف أساسا إلى تجاوز القطيعة التي حدثت في فكرنا المعاصر بين الإسلام والمعرفة- كان رد الفعل عنيفا بلغ درجة التصفية الجسدية لصاحب المشروع.

ومن ناحية ثانية، نجد أن واحدة من الوسائل التي تستخدمها الجامعة النصرانية وحليفها الصهيونية في محاربة الأمة الإسلامية -في ظل النظام الدولي الجديد³- هي الحجر المعرفي عليها، وعدم السماح لها بتكوين وجهة نظر إسلامية في المعرفة تكون منطلقا لأبحاث ودراسات أصيلة تطور المعرفة في الاتجاه الذي يخدم الحضارة الإسلامية مستقبلا. إن خطورة مثل هذا التوجه بالنسبة للغربيين تكمن في أنه يؤدي على المدى الطويل إلى استقلال الباحثين المسلمين عن مراكز البحث الغربية، ونشوء مراكز بحث تتطرق في خلفياتها النظرية من الإسلام، وتعالج مشكلات المنطقة بهدف الوصول إلى حلول تسهم في بناء الحضارة الإسلامية، الشيء الذي يعني نهاية الهيمنة الصليبية-الصهيونية على أمتنا. ذلك بأن الهيمنة السياسية والثقافية والعسكرية والاقتصادية التي تمارسها الجهات المعادية علينا لا يمكن أن تستمر دون هيمنة معرفية بالدرجة الأولى. فدهاقنة الغرب يعلمون أن "المعرفة هي القوة"، ولذلك يحرصون على مراقبة البحث العلمي في الأقطار الإسلامية عن كثب، ويعملون دائما على توجيهه في الاتجاه الذي يبقى الأمة الإسلامية في حالة الضعف والتخلف التي تعيشها.

لقد تمكن الغربيون خلال فترة الاستعمار المباشر للمنطقة الإسلامية من فرض نظامهم التعليمي على أبناء المسلمين، وهو نظام مؤسس على نظرية خاصة حول المعرفة انبثقت في بداية عصر النهضة وتطورت من خلال الصراعات التي خاضتها التيارات الفكرية المادية ضد الكنيسة، ومن خلال الكشوفات التي توصل إليها الباحثون في مجال الظواهر الكونية المادية. وتمثل تلك النظرية القاعدة المرجعية في تصنيف المعارف وتقييمها وهيكلتها النظام التعليمي الذي يسهر على تلقين المعارف وعلى تطويرها من خلال البحث العلمي. وقد ترسبت هذه النظرية في عقول أبناء الأمة الإسلامية، وأصبح الغربيون يوجهونهم من خلالها في دراساتهم وأبحاثهم بالشكل الذي يخدم مصالح الغربيين الاستعمارية. وتتمثل هذه المصالح في أمرين :

- أولهما ربط المنطقة الإسلامية بقاطرة الثقافة الغربية، بحيث تتفصل عمليا عن تراثها الثقافي وتتمزج عن الثقافات الإنسانية الأخرى، لتبقى تابعة للحركة الثقافية الغربية : تستهلك منتجاتها، وتنتج -حين تنتج- ما يقوي الغرب ويرسخ تفوقه على كل المستويات.

- ثانيهما إضعاف المنطقة من جميع النواحي لتأمين استمرار تبعيتها تجاه الغرب، وذلك باستنزاف مواردها البشرية والطبيعية.

إن مواجهة النظام الدولي الجديد تفرض على أبناء الأمة الإسلامية بلورة منظور إسلامي للمعرفة يكون منطلقا لوضع أسس النموذج الحضاري الإسلامي الذي طمس الاستعمار آثاره من واقعنا وفكرنا، وموجها للأبحاث الهادفة إلى رسم تفاصيل هذا النموذج الذي تتجه جهود العاملين في الحقل الإسلامي لإخراجه إلى حيز الوجود. فعلى الرغم من أن المعالم الكبرى للحضارة الإسلامية متوفرة في القرآن والسنة، وبعض تفاصيلها موجود أيضا في صفحات تاريخ الأمة الإسلامية، إلا أننا لا يمكننا القول الآن إن ذلك كاف لبناء حضارة إسلامية تتحدى بها الحضارة الغربية. بل لا بد بالإضافة إلى دراسة تراثنا -وهي مهمة لم يتم إنجازها بعد- من التعمق في المعارف المعاصرة واستيعابها لدرجة تسمح بتحليلها وتمييز ما هو متعارض مع النظرة الإسلامية للمعرفة مما هو ليس كذلك. ثم تأتي بعد هذا خطوة تطوير المعارف الحالية في الاتجاه الذي يغني البناء الحضاري الذي نكون قد استخرجناه من التراث، بحيث ينتج لنا بديل حضاري إسلامي متقدم في مستوى التحدي الذي نواجهه اليوم.

إن بلورة هذا المنظور تقتضي أولا بناء نظرية إسلامية في المعرفة⁴، تكون قاعدة مشتركة لمختلف التخصصات والدراسات، على اعتبار أنها تؤدي المهام التالية :

1- تحدد مفاهيم المصطلحات الأساسية المتداولة بين الباحثين مثل العلم والمعرفة والإنسان.

2- تحدد مصادر المعرفة وترتيبها بحسب درجة وثوقها.

3- تصنف المعارف وتبين علاقاتها فيما بينها وترتيبها بحسب أهميتها.

واضح أن بناء مثل هذه النظرية يستلزم تضافر جهود عصبية من أولى العلم والعزم، وهي مهمة لم يتم إنجازها بعد. ونحن نعتبر أن عملنا لن يكتمل في غياب هذه الأرضية الأولية، غير أننا مضطرون للبدء في بحثنا دون انتظار إنجازها للحاجة الملحة إلى القيام بخطوات عملية -ولو جزئية- على طريق رفع التحدي المعرفي الذي تواجهه أمتنا.

وقد اخترنا معالجة علاقة علم النفس بالثقافة، بسبب ما لاحظناه -من خلال تتبعنا للجهود التي قام بها باحثون مسلمون في إطار "أسلمة علم النفس"- من التخبط والمحاولات غير الموفقة بسبب افتقار هؤلاء إلى فهم دقيق وعميق لعلاقة علم النفس بالثقافة. فقد ظلت العلاقة بين علم النفس والثقافة الغربية -للاعتبارات التي أشرنا إليها في بداية هذه المقدمة- بعيدة عن الأضواء، ولم يبرز الاهتمام بها إلا في الخمسينات وذلك بعد أن أعاد بعض الباحثين دراسات نفسية غربية في مناطق أخرى من العالم فتوصلوا إلى نتائج مختلفة قليلا عن النتائج التي أثبتتها الدراسات الغربية الأصلية. وقد فسرت تلك الاختلافات بكونها راجعة إلى اختلاف الثقافات التي أجريت فيها الدراسات. وخلال العقود الأربعة الأخيرة تضاعف الاهتمام بمشكلة تأثير الثقافات غير الغربية في نتائج علم النفس، وأجريت دراسات مكثفة حولها تبلورت أخيرا في تخصص مستقل داخل علم النفس يحمل اسم: "علم النفس عبر الثقافي"⁵.

إن معالجة مشكلة علاقة علم النفس بالثقافة، في الدراسات النفسية "عبر الثقافية"، اقتصر على تناول بعض الاختلافات الملاحظة بين الثقافة الغربية والثقافات الإنسانية الأخرى بهدف تفسير الاختلافات بين نتائج الأبحاث النفسية الغربية وبين النتائج التي يحصل عليها الباحثون عند إعادة تلك الدراسات في مجتمعات غير غربية. ونحن نعتبر هذه المعالجة سطحية لأنها لا تكشف عن الروابط الموجودة بين علم النفس والثقافة التي أنتجته، بل تنطلق ضمنا من "علمية" علم النفس الغربي: أي من استقلاله عن المناخ الثقافي والفكري الذي عرفته أوروبا منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى الآن، وتعتبر نتائجه صالحة للتعميم على جميع أفراد النوع البشري مع أخذ بعض المتغيرات الثقافية فقط بعين الاعتبار.

لذلك قمنا بدراسة نقدية متعمقة لأسس علم النفس "عبر الثقافي" أبرزنا فيها أهم إشكالات هذا التخصص، وأتبعناها بمقترحات لحل تلك الإشكالات آخذين بعين الاعتبار البعد الإنساني لعلم النفس وضرورة توسيع آفاقه لتشمل كل الثقافات والإبداعات التي عرفتها البشرية قديما وحديثا.

فحينما نقرأ تعبير «عبر الثقافي» cross-cultural، دون أن تكون لدينا فكرة عن معناه الاصطلاحي، فإن الدلالة العامة التي تتبادر إلى الذهن هي إشارته إلى العلاقة بين الثقافات. ولقد عرفت هذه العلاقات، منذ القدم إلى الآن، صوراً متعددة ومتنوعة تراوحت ما بين الانغلاق والعزلة واللامبالاة، وبين التعاون والتبادل والتفاهم، وبين التنافس والتدافع حتى الصراع والحرب والتدمير المتبادل. والمتتبع لهذه العلاقات خلال تاريخ الإنسانية يجد أنها كانت في أغلبها علاقات صراع وتنافس. وأهمية معرفة وضع العلاقات بين الأمم، تتمثل في كون تلك الأوضاع تنعكس مباشرة في عمل الباحثين «عبر الثقافيين» من خلال تأثيرها في المناظير التي تتحكم في منطلقات البحث وأهدافه.

فمنذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى بداية الثلاثينات من القرن العشرين، تركز البحث في منظور عرقي منغلِق جداً، يُلخّص في تفوق الجنس الأبيض على بقية الأجناس البشرية جسمياً وعقلياً وثقافياً. وقد ساهم في ترسيخ هذا المنظور امتداد نظرية التطور إلى المجال الثقافي والحضاري، وكذلك المد الاستعماري الكاسح الذي مكن الغربيين، بسبب تفوقهم العسكري والتكنولوجي، من السيطرة على بقية شعوب العالم. وعلى الرغم من التحولات الهامة على الساحة الدولية التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، فإن انعكاساتها على مناظير البحث بقيت ضعيفة ولم تحدث تغييراً بالحجم ولا بالعمق الذي كان يتوقع لمؤسسات دولية كالبيونسكو أن تحدثه. لقد انحصرت آثارها في إعطاء دفعة لمنظور كان قد بدأ يتبلور منذ الثلاثينات في اتجاه استبعاد التفوق الجسمي والعقلي للغربيين من مجال البحث «عبر الثقافي» بحيث يبقى التفوق الغربي حضارياً وثقافياً فقط. وقد أسفر هذا الاتجاه عن ظهور المنظور المتمركز حول الثقافة كبديل عن المنظور العرقي السابق. ولا يزال البحث «عبر الثقافي» منذ الأربعينات إلى الآن محكوماً من هذا المنظور. إلا أن هناك دلائل تُؤشّر على وجود تحول فكري بطيء على المستوى الدولي يمكن أن يقود إلى تحول فعلي على مستوى البحث «عبر الثقافي» في المستقبل.

فمنذ عقد الستينات بدأ الحديث عن ظاهرة «الامبريالية الثقافية» كظاهرة شاذة في العلاقة بين الثقافات الإنسانية، وأدى الوعي المتنامي بهذا المشكل إلى نتائج مهمة في اتجاه مناقشته على أعلى المستويات من ناحية، وبلورة مناظير بديلة ترمي إلى فتح الثقافة الغربية على الثقافات الأخرى من ناحية ثانية.

1- إن الاعتراف بحق الشعوب في المحافظة على ثقافتها، كما نصت على ذلك وثائق اليونسكو⁶، وإن كان شكلياً في البداية، لم يلبث أن أثار في عقد الستينات -مع استقلال عدد كبير من الدول الإفريقية والآسيوية- مناقشات جادة حول تحديد العلاقة بين ثقافات الدول القوية وثقافات الدول الفقيرة الحديثة العهد بالاستقلال. وقد كانت المسألة من الأهمية بمكان، حيث إنها دفعت الدول الأعضاء في اليونسكو إلى تنظيم مؤتمر حول السياسات الثقافية في البندقية

(إيطاليا) سنة 1970. وقد اعترف مندوبو الدول المشاركة في المؤتمر بأن النمو الثقافي هو أحد العوامل الأساسية للنمو الشامل، واحتجوا ضد ما سموه «الامبريالية الثقافية»، وسحق الثقافات القومية للدول الصغيرة أو الضعيفة اقتصاديا من طرف الثقافات التي تصدرها الدول الغنية، بفضل وسائل واسعة الانتشار تتنامى قوتها يوما بعد يوم. كذلك أبدوا تفهمهم لمخاوف الدول الضعيفة من التهديدات التي تمثلها الثقافات القوية على الثقافات المحلية⁷.

وكان من نتائج توصيات هذا المؤتمر، أن أعطت اليونسكو الأولوية في برنامجها لسنة 1973 لقضية تنمية الهوية الثقافية والدفاع عنها وكذا قضية التعددية الثقافية، اعتمادا على أن "التأكيد على الهوية الثقافية يفرض نفسه اليوم كعامل قوي في حياة الشعوب وفي العلاقات الدولية أيضا"⁸. إذ تعتبر المنظمة أن إقرار الهوية الثقافية لكل شعب، في مواجهة تيار الثقافة العالمية الموحدة الذي ينادي به البعض، هو أساس التعددية الثقافية. ويشكل الاعتراف بهذه التعددية واحترامها عاملا في نشر السلام والتفاهم بين الشعوب.⁹

2- أما المؤشر الثاني على وجود تحول في تصور العلاقات «عبر الثقافية» لدى الباحثين أيضا، فهو ظهور منظور جديد في ميدان البحث النفسي «عبر الثقافي» مؤخرا في فرنسا تحت اسم «الاعتراف المتبادل بين الثقافات»¹⁰. ويمكن اعتبار هذا المنظور صدى لتوصيات اليونسكو ونداءاتها. وعلى الرغم من أن المنظور الجديد لا يزال مجهولا لدى غالبية الباحثين «عبر الثقافيين»، وعلى الرغم من نقائصه أيضا فإنه يمثل، من الناحية المبدئية، قفزة نوعية في تطور البحث «عبر الثقافي»، وفي علم النفس خصوصا.

غير أن ما يلفت النظر بهذا الصدد هو كون المبادرة أتت من الغرب نفسه، بينما نلاحظ إغفالا يكاد يكون تاما لمشكلة المناظير وما أشبهها من المشاكل ذات الطابع الابدستمولوجي لدى علماء النفس في العالم الثالث. فمن خلال فحصنا لفهرسين دوليين للأبحاث النفسية وهما Psychological Abstracts الذي تصدره رابطة علماء النفس الأمريكيين وle Bulletin Signalétique الذي يصدره المركز القومي للبحث العلمي في فرنسا، لاحظنا أنه على الرغم من تكاثر الأبحاث النفسية التي ينتجها هؤلاء في العقدين الأخيرين فإنها تركز على مواضيع ميدانية ليست لها أهمية تذكر على مستوى المشكلات النظرية والمعرفية (الابدستمولوجية) التي يطرحها البحث النفسي في المناطق الثقافية غير الغربية. ويبدو هذا الوضع شادا أكثر في المنطقة العربية الإسلامية ذات الثقافة الغنية والعتاء المعرفي الأصيل في الماضي¹¹، حيث لم يتبلور بعد أي تيار متميز للبحث في علم النفس يفرض نفسه على الساحة العلمية الدولية.

وقد لاحظنا أيضا من خلال تصفحنا للفهارس المذكورة أنفا ضعف الاهتمام بهذه المنطقة من طرف الباحثين «عبر الثقافيين» على الرغم من غنى ثقافتها.

وبهذا الصدد نلاحظ حالياً أن الاهتمام موجه بالدرجة الأولى في الدراسات «عبر الثقافية» إلى المقارنة بين الأمريكيين والأوروبيين واليابانيين¹². ويمكننا تفسير هذا الواقع بكون التكنولوجيا تعتبر أهم عنصر في تقييم الثقافات الإنسانية حالياً. وبما أن الشعوب الثلاثة المذكورة هي المنتجة للتكنولوجيا المتقدمة، فمن «الطبيعي» أن يتركز الاهتمام على ثقافتها وتهمل الثقافات المتخلفة تكنولوجياً مثل ثقافة الدول العربية الإسلامية. وحتى حين يوجه الاهتمام إلى الثقافات الأخيرة، فإن الأبحاث «عبر الثقافية» تعمل على الحط من قيمتها وذلك بمقارنتها مع الثقافة الغربية في الميادين الاقتصادية-المعيشية والتكنولوجية-المعرفية التي يتفوق فيها الغرب، بشكل يبرز فروقاً هائلة بين الثقافات الغربية وغير الغربية يصفها بعض الباحثين بأنها «مأساوية»¹³.

ولتجاوز هذا الوضع عملنا في بحثنا الحالي على وضع أرضية نظرية جديدة للبحث «عبر الثقافي» في علم النفس. وقد تطلبت هذه المحاولة عملاً تركيبياً من مرحلتين: الأولى عبارة عن دراسة نقدية لأسس البحث «عبر الثقافي»، أبرزنا فيها المشكلات المرتبطة بالمفاهيم المستخدمة والثغرات الموجودة في مناظير البحث وأهدافه، وعرضنا في مرحلة ثانية الأرضية النظرية التي نقترحها كبديل لإطار العمل الحالي بوصفها تمثل حلاً للمشكلات التي أوضحناها في المرحلة الأولى سواء أتعلق ذلك بالمفاهيم أم بالمناظير. إن هذا العمل التركيبي ذو طبيعة إيستمولوجية حيث سيتناول بالنقد الأسس التي يقوم عليها البحث «عبر الثقافي» بشكل عام، ويطمح أيضاً إلى تقديم حلول على مستوى عام لا يخص منطقة ثقافية دون أخرى.

ونظراً لأن الباحثين الغربيين -حتى الأكثر تفتحاً منهم على الثقافات الأخرى من أمثال مؤسسي منظور «الاعتراف المتبادل بين الثقافات»- لا يزالون يتعاملون مع ثقافات العالم الثالث من موقع الوصي عليها ويستبعدون أي إسهام لها في مجال التقدم المعرفي، فإننا نهدف من وراء طرح رؤيتنا الجديدة إلى لفت انتباه الباحثين -وخاصة في المنطقة العربية الإسلامية- إلى إمكان تأسيس منطلقات للبحث «عبر الثقافي» مبنية على اعتبارات إنسانية بالدرجة الأولى، مختلفة عن الاعتبارات التكنولوجية والاقتصادية التي تركز عليها الرؤية الغربية.

وهنا نود أن ننبه على وجود مفارقة في استعمال عبارة «البحث عبر الثقافي في علم النفس»، إذ تستعمل في الغرب للدلالة على الدراسات النفسية التي تجرى خارج البلدان الغربية كيفما كان التخصص موضوع هذه الدراسات، ويعبر عنها أيضاً بـ«علم النفس عبر الثقافي». وكنتيجة لذلك فإن كل الأبحاث التي لها صلة بعلم النفس في المنطقة العربية الإسلامية -وغيرها من الثقافات غير الغربية- تدخل تلقائياً، في الاصطلاح الغربي، تحت عنوان علم النفس «عبر الثقافي».

وبعبارة أخرى فإن عبارة علم النفس «عبر الثقافي» لا تدل في منطقتنا على تخصص معين كما هو الحال في الغرب، وإنما تدل على البحث في علم النفس بشكل عام. ويمكننا اختصار ما سبق في الصيغة التالية :

علم النفس «عبر الثقافي» في الغرب = علم النفس في المناطق غير الغربية. ومهما بدت هذه المفارقة مجحفة أو ظالمة في حق علم النفس خارج المنطقة الغربية فإننا نعتقد بأنها تعكس الواقع تماما. ذلك بأن البحث النفسي في البلدان غير الغربية، باستثناء حالة اليابان، يشكل استمرارية باهتة لعلم النفس الغربي. وخير مثال على هذا هو وضع علم النفس في المنطقة العربية الإسلامية الذي يمكننا تلخيصه في وجود تبعية مطلقة بينه وبين علم النفس الغربي، سواء أكان ذلك على مستوى البحث أم التدريس أم الممارسة التطبيقية.

وهدفنا من صياغة تصورنا الجديد لعلم النفس «عبر الثقافي»، هو وضع مشروع لتأصيل علم النفس في المنطقة العربية الإسلامية¹⁴ بصورة تحقق له الاستقلال على كل المستويات. ونشير إلى أنه قد بدأ الحديث في العقد الماضي عن محاولات من هذا القبيل داخل مناطق ثقافية أخرى تحت عنوان : indigenization of psychology. إلا أننا نفضل استعمال لفظ «تأصيل» بدلا منه، باعتبار أن اللفظ اللاتيني مشتق من indigenus وهو نعت للشعوب غير الأوربية يحمل نبرة من الاحتقار والانتقاص من شأنها. وكيفما كان اللفظ المستعمل، فإن ما نقصده باستقلال علم النفس في المنطقة العربية الإسلامية - الذي نفترض أن تؤدي إليه عملية التأصيل- هو أن ينطلق البحث في علم النفس وتدريبه وتطبيقه من الأرضية الثقافية الخاصة بهذه المنطقة، وبذلك يسهم في إغناء المعرفة النفسية الحالية بأبحاث أصيلة مركزة على عناصر الجدة في الثقافة المحلية بالمقارنة مع الثقافة الغربية التي يقوم عليها علم النفس الآن.

وبناء على ما سبق، قسمنا مادة كتابنا إلى بابين.

قمنا في الباب الأول منها بدراسة نقدية للوضع الحالي للبحث «عبر الثقافي» في علم النفس من خلال ثلاثة فصول. نتبعنا في الفصل الأول مراحل تطور البحث «عبر الثقافي» حتى يتسنى لنا فهم الأبعاد التاريخية للمشكلات الحالية، وتناولنا كذلك العوامل التي أسهمت في هذا التطور. وعرضنا في الفصل الثاني لمشكلات تعريف المصطلحات الأساسية المستخدمة في هذا الميدان، وهي الثقافة و«علم النفس عبر الثقافي». أما في الفصل الثالث فقد تعرضنا لثلاثة مناظير وجهت البحث «عبر الثقافي» منذ بدايته حتى الآن، وهي :

- المنظور المتمركز حول العرق.

- المنظور الإسقاطي المتمركز حول الثقافة، وقد تناولنا خلال عرضنا لهذا المنظور أسلوبين رئيسيين في البحث «عبر الثقافي» هما : المعالجة من الداخل والمعالجة من الخارج.

- ثم أخيرا منظور الاعتراف المتبادل بين الثقافات.

ويتضمن الباب الثاني أطروحاتنا الرئيسية المتعلقة بحل المشاكل التي أثارناها في الباب الأول، كما تشكل هذه الأطروحات الإطار النظري البديل الذي نقترحه للبحث «عبر الثقافي» في علم النفس مستقبلا. وقد قصدنا إلى أن تكون هذه الأطروحات عامة بحيث يمكن توظيفها في أية ثقافة إنسانية غربية أو غير غربية، وسنعرضها في فصلين. أما الفصل الرابع فقد خصصناه لمقترحاتنا بشأن مفهوم الثقافة، حيث قدمنا في البداية عرضا مفصلا لتصورنا عن هذا المفهوم، ثم قمنا انطلاقا من العرض السابق بمحاولة لإجراء «تحليل ثقافي لعلم النفس»، الهدف منه فرز العناصر الثقافية والموضوعية في علم النفس الحالي تمهيدا لمناقشة أطروحتنا عن علم النفس «عبر الثقافي» التي سنشكل محور الفصل الخامس، الذي سنقدم من خلاله تعريفا جديدا لموضوع علم النفس «عبر الثقافي»، ونتبعه بمناقشة تفصيلية لجميع فقراته، وعلى الخصوص الأهداف الثلاثة التي نسندھا للبحث «عبر الثقافي» في تصورنا الجديد، وتبدو في :

1- إغناء المعرفة النفسية الحالية بإسهامات الثقافات غير الغربية من خلال تصوراتها الخاصة عن «الإنسان». ونعتبر إسهام علماء نفس غير غربيين متجذرين في ثقافتهم الأصلية شرطا ضروريا للوصول إلى هذا الهدف.

2- حل بعض مشاكل علم النفس الآتية من انغلاقه داخل الثقافة الغربية.

3- تسهيل نقل المعرفة النفسية إلى بلدان العالم الثالث، لأن هذه العملية تطرح في الأوضاع الحالية مشكلات مستعصية بسبب عدم ملاءمة علم النفس لثقافات البلدان غير الغربية.

هوامش الفصل

¹ إننا نستعمل لفظي الإناسة والعراقة لترجمة مصطلحي Anthropology و Ethnology على التوالي.

² إسماعيل راجي الفاروقي : أسلمة المعرفة، المبادئ العامة وخطة العمل.

³ عبد الناصر السباعي : البعد الحضاري للنظام الدولي القديم والجديد.

⁴ عبد الناصر السباعي : ضرورة صياغة نظرية إسلامية في المعرفة.

⁵ لقد اخترنا عبارة "علم النفس عبر الثقافي" لترجمة مصطلح Cross-cultural Psychology.

⁶ جعلت منظمة اليونسكو هدفها الأول هو "الإسهام في حفظ السلام والأمن بتعزيز التعاون بين الأمم عن طريق التربية والعلم والثقافة، وذلك بهدف ضمان الاحترام الشامل للعدالة والقانون وحقوق الإنسان والخريات الأساسية التي أقرها ميثاق الأمم المتحدة لكل الشعوب، لجميع الناس دون تمييز بين الأعراق أو اللغات أو الأديان أو بين الجنسين." (البند 1، 1، من معاهدة 1945 التي تم بموجبها إنشاء اليونسكو).

⁷UNESCO : Regard sur l'Unesco. p 27.

⁸ نفس المرجع السابق ص 37.

⁹ نفس المرجع السابق ص 38.

¹⁰ انظر الفصل الثالث ص 79.

¹¹ هونكه زيغريد : شمس العرب تشرق على الغرب.

¹²MORSBACH H. : An intensive "triangular" study (Japan-USA-Europe) of socio psychological variables.

¹³SANDERS J. L. & BRIZZOLARA M. S. : Connotative meaning of time among egyptian and american students. p 587.

¹⁴ سيصدر لنا قريبا إن شاء الله تعالى كتاب في الموضوع تحت عنوان: "مستقبل علم النفس في المنطقة العربية الإسلامية".

الكتاب الإلكتروني لشبكة العلوم النفسية العربية: العدد 27



إصدارات شبكة العلوم النفسية العربية

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف 2013

د. عبد الناصر السباعي

- الاختصاص: علم النفس
- الشهادة : دكتوراه الدولة في الآداب
- الاهتمامات العلمية: علم النفس عبر الثقافات - علم النفس التربوي - تأصيل علم النفس - الزمن - التربية الإسلامية - علم النفس الديني - الفكر الإسلامي



- الوظائف والمسؤوليات :
 - أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية - ظهر المهراز، فاس، المغرب.
 - منسق الإجازة الأساسية في علم النفس (2005 - 2007).
 - منسق الإجازة المهنية في علم النفس "المربي المتخصص" (2007 - 2012)
 - عضو منتخب في حظيرة اللجنة العلمية (2008 - 2011)
 - منسق مسلك الماستر "علم النفس الإكلينيكي" (2010 - 2012)

المؤلفات :

- 9* منار التربية الإسلامية (بالاشتراك): كتاب التلميز للسنة الثانية باك من التعليم الثانوي التأهيلي. الدار البيضاء، طوب إديسيون، سنة 2008 م.
- 8* منار التربية الإسلامية (بالاشتراك): كتاب التلميز للسنة الأولى باك من التعليم الثانوي التأهيلي. الدار البيضاء، طوب إديسيون، سنة 2008 م.
- 7* علم النفس عبر الثقافات. منشورات جامعة سيدج محمد بن عبد الله، سلسلة الرسائل والأطروحات الجامعية. فاس، مطبعة الأفق، سنة 2006 م.
- 6* النجاح في المواد الإسلامية (بالاشتراك): دليل الأستاذ للسنة الأولى من التعليم الابتدائي الأصيل. الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، سنة 2005 م.
- 5* منار التربية الإسلامية (بالاشتراك): كتاب التلميز للذويع المشتركة من التعليم الثانوي التأهيلي. الدار البيضاء، طوب إديسيون - سنة 2005 م.
- 4* منار التربية الإسلامية (بالاشتراك): دليل الأستاذ للسنة الثالثة من التعليم الثانوي الإعدادي. الدار البيضاء، طوب إديسيون، سنة 2005 م.
- 3* منار التربية الإسلامية (بالاشتراك): كتاب التلميز للسنة الثالثة من التعليم الثانوي الإعدادي. الدار البيضاء، طوب إديسيون، سنة 2005 م.
- 2- Critique de la psychologie interculturelle. Fès, Imp. Info-Print, 2005.
- 1* مدخل إلى الدراسات السلوكية - فاس، مطبعة أنفو برانت، سنة 2004 م

إصدارات شبكة العلوم النفسية العربية

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف 2013

